

أحد الفريسيّ والعشار

بسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد أمين

يا أحبباء، إنّ هذا الأحد هو أحد الفريسيّ والعشار. إنّ الصلوات الخاصة بهذا الأحد أي غروب السبت البارحة: الصلوات والتراتيل والقطع التي نرتلها ونقولها في صلاة الغروب و صلاة السحر الخاصة بهذا الأحد، الفريسيّ والعشار، وكذلك في القداس الإلهي، الرسالة والإنجيل اللذين سمعناهما قبل قليل...، كل هذه الترانيم وهذه المقاطع التي تليت من الكتاب المقدس تدور حول موضوع التواضع. في أحد الفريسيّ والعشار، بشكل أساسي، تذكرنا الكنيسة بشيء يسمى التواضع والانتضاع. هذا ما سمعناه في الإنجيل عندما قال الرب يسوع: من رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع. فالإنسان عندما يتمسك بنفسه وبرأيه وعندما لا يفكر إلا بمصلحته، الإنسان الذي لا يطلب سوى تحقيق رغباته وإرادته والأشياء التي يفكر بها والذي لا يقبل أن تجري الأمور إلا كما هو يريد دون أن يعود إلى نفسه من حين إلى آخر ويسأل نفسه: هل يا ترى ما أريده أنا هو الصحيح؟ هل ما أفكر به هو مشيئة الرب؟ عندما يتجاهل الإنسان هذه الأمور ويظنّ بالتالي أنه عارف بكلّ شيء، لا يسأل ولا يشعر بالحاجة لأن يسأل إنساناً آخر أو لأن يلجأ لإنسان آخر، لأنه يعرف.

الانتضاع هو أن يتذكر الإنسان كل ما سمعناه في هذا المثل الذي تلي من الإنجيل حين وقف الفريسيّ أمام الرب وقال: أشكرك يارب لأني لست مثل هؤلاء الناس لأنني أنا أتمم واجباتي وأعرف ماذا يجب عليّ أن أفعله. وهنا كانت المشكلة.

كانت المشكلة بأنّ لديه هذا الشعور: أشكرك لأنني لست مثل هؤلاء الناس أنا أفضل منهم. لماذا هو أفضل منهم؟ لأنه يتم واجباته تجاه ربه، لأنه يتم الوصايا والفروض التي يجب عليه أن يتمها. فالواحد منا ينسى انه عندما يأتي إلى الكنيسة ويصوم ويصلي ويعمل عمل الإحسان ويطبق الوصايا، ينسى الواحد منا أن الهدف من تطبيق هذه الوصايا أو القيام بهذه الأمور هو الانتضاع، وذلك من أجل أن ينخس قلبه ويشعر أن الرب هو كل شيء في حياته فيتضع أمامه ويطلب رحمته ويقول ارحمني يا رب أنا عبدك الخاطيء، وأنت الألف والياء، وأنت الكل في الكل، وأنت هو كل شيء. ذلك هو ثمرة الممارسات الروحية في حياته من صلاة وكتاب مقدس وعمل الإحسان، إلى ما هنالك. ففي بعض الأحيان ينظر الإنسان إلى نفسه لا إلى ربه وإلى الآخرين كي يحبهم. ينظر إلى نفسه، وعندما ينظر إلى نفسه ويعتقد أنه أفضل من غيره بقليل لأنه يأتي إلى الكنيسة أكثر، لأنه يصلي، لأنه يصوم، لأنه يعمل... الخ بينما الآخر قد لا يكون كذلك. وبالتالي فإن مجيئه إلى الكنيسة وممارسته للوصايا بدلاً من أن يكون تذلاً أمام الله و انتضاعاً أمامه، يصبح وكأنه تتميم لهذه الأمور كيما يتعجرف ويستكبر على الآخرين ويرى نفسه أفضل منهم. نحن الآن موجودون في الكنيسة وغيرنا لا، ربما كنا نفكر بأننا أحسن منهم لأننا موجودون في الكنيسة وهم غير موجودين، أو إننا نحن من يجب الرب ويحيا الفضيلة، وبالتالي فنحن أبناء الكنيسة وهم خطاة إلى الجحيم؟ أبداً، ليس الأمر كذلك.

علينا دائماً أن نتذكر هذا الأمر هو أن كل ما نقوم به نابع من داخلنا وأنه علينا أن نتضع، أن نكون أشخاصاً متضعين لأن التواضع يضرب الوتر الحساس في حياة الإنسان الذي هو التكبر. الإنسان يستكبر ويعتد بنفسه ويتكبر على الآخرين بسبب المعرفة أو المال أو لأي سبب كان، فيشعر بأنه سعيد بشخصه ولا يسمح لأحد بأن يجرح هذه الكرامة التي يعيشها والذي هو سعيد بها، إنه بالفعل يعيش في قفص من زجاج ممنوع على أحد أن يلمسه لأنه إذا كسر، بالنسبة له، فقد انكسر كل شيء. ولكنّ هذا ليس هو الحق. الكنيسة تذكرنا اليوم، وقبل الصوم، بأن نتضع. أي أن يعود الواحد منا إلى نفسه، أن يتذلل أمام الله، أن يتذكر أن يصرخ (يا ربي ارحمني أنا الخاطيء). وأن ينظر إلى الآخرين بعين المحبة، أن ينظر إلى الآخرين على أنهم أحسن منه وليس هو أفضل منهم، وألا يقول كما قال الفريسيّ. الفريسي لم يخطئ عندما قال: أنا يا رب أصوم وأصلي وأتمم الوصايا. هذا صحيح، هو يصوم ويصلي ويتمم الوصايا، ولكن الخطأ كان عندما قال: أنا أصوم وأصلي وأتمم الوصايا لذلك أنا لست مثل هؤلاء، أنا أفضل منهم، هم لا يفعلون هذا فأنا أفضل منهم. هنا كان الخطأ، والخطيئة كما قال أحد الآباء القديسين في بستان الرهبان، إذا انشغل الإنسان عن خطيئته وسقط في خطايا أخيه.

إذاً، إن هذا التواضع يدعونا لأن تكون أعيننا ظاهرةً وفكرنا ظاهر وقلبنا ظاهر وألنا نظن السوء بإخوتنا، وأن نكون متضعين ومتذللين أمام الله. وعندما نتضع ترتفع؛ وقد قال الرب (من وضع نفسه ارتفع). وعلى هذا الأمل نحن نجاهد ونتضع على الرب يشملنا برحمته ويرفعنا ويجعلنا من أبناء الملكوت أمين